٥

كلمة الأستاذ الدكتور فرحات بن علي الجعبيري

أ.د. فرحات بن علي الجعبيري
أستاذ التعليم العالي، تونس
farhatjaabiri@yahoo.fr

الأصالة والمعاصرة في الفكر التربوي عند الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم. ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (سورة الكهف: ١٠). أبنائي الأفاضل، بناتي الفُضْلَيَات، أيُّها الإخوة المؤمنون، حيثما كنتم في كلِّ مكان؛ لأنَّ الكلمة الآن ترحل عبر الأثير وعبر الزمان وعبر المكان، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إنَّ هذا اللِّقاء المبارك يَفْصِلُني عن أوَّل لقاء مبارك في هذه البلاد الحبيبة، باثنتين وثلاثين سنة، ففي شهر جمادى الأولى من سنة ١٤٠٤هـ/مارس ١٩٨٤م، جلستُ محاضرا في مدارج مدرسة أبي عبيدة الثانوية. ومن عجائب الزمن، أو من بركات القدر، أن يأتيني طالب ويقول لي: حضرتُ المحاضرة التي ألقيتَها في مدرسة أبي عبيدة، وهي عندي مسجَّلة في شريط، وأعادها عليَّ ملخَّصة، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضحى: ١١). إنَّ من حقنا الاستفادة من عطاء هذه الوسائل العصرية الحضارية؛ لأنَّ حضارتنا الإسلاميَّة شاركت في هذا العطاء، فنحمد الله تعالى على ذلك. وقبل البدء في الحديث عن الموضوع الرئيس لكلمتي لديَّ ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: أنَّ التعاون بين المغاربة والمشارقة ضارب في عمق الزمن، في القرون الخالية، من القرن الأوَّل لهجرة رسول الله ﷺ. وأنا أحمد الله تعالى أن السّلطة الرشيدة في هذه البلاد انتبهت إلى ضرورة دراسة تاريخها الحديث؛

حتَّى لا تبقى هوة بين الواقع المعاصر والتاريخ التليد. وإنَّ إمامة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي- رحمة الله عليه- ليست منَّا ببعيدة، وأنا لو كنت أُدَرِّسُ في عُمان في ذلك الوقت لأدركتها في السنوات الأولى من حياتي؛ ففي عام ١٩٥٤ كنت أدرس في الابتدائيَّات، وكان يمكن أن أدرس في مدرسة حصن نزوى، أو ما حوله من المدارس التنظيمية التعليمية.

إن هذه الندوة نقلة نوعية هامة، فبارك الله فيمن فكّر فيها، وسعى إليها. ونسأل الله تعالى أن يجزل الثواب على المؤسّستين القائمتين على هذا المكان، وهذا البهو الأهلي، وهذا الصرح العلمي الذي كان ضربا من الخيال قبل بضع سنوات، وإذا بنا نمرح بين طلبة وطالبات وفي جو علمي موضوعيٍّ سَمْحٍ، في غاية الأخوَّة والمحبَّة والبساطة.

إنَّ هذه البساطة التي نراها في شبابنا وبناتنا الجالسين على الأرض في هذه القاعة الغاصّة بالحضور، والذين لم يجدوا مقاعد يجلسون عليها، تروق لنا نحن الذين عشنا في صَلَفِ الحضارة المادية.

لا أخفي عليكم أنني أنا سليل حضارة مادية قوية، ومن درسنا عليهم كانوا غاية في الإلحاد والكفر، ولكن قبسنا منهم منهجية نقدية حوّلناها من دراسة الفكر المعاصر إلى دراسة فكرنا الإسلامي الأصيل. والمنهجية النقدية ليست غريبة عن فكرنا؛ لأنَّ الموضوعية متأصّلة في الفكر الإسلامي من خلال دراسة حديث الرسول ﷺ؛ فما يسمَّى الآن (النقد) هو نفسه منهج (الجرح والتّعديل) في السنَّة النبويَّة؛ وإنَّما تغيرت العبارات فقط.

وقد قامت المدرسة الإسلاميَّة في عهد رسول الله ﷺ على هذا المنهج النقدي الموضوعي؛ فالصحابة- رضوان الله عليهم- كانوا يسألون الرسول ﷺ: أهذا الأمر من الوحي أم من الاجتهاد؟، فإذا كان من الاجتهاد يغيّره الرسول ﷺ إلى الأحسن والأحزم؛ وذلك يعني أنَّ (الموضوعيَّة) لم تسقط علينا من الخارج، وإنَّما الخارج وظّفها وحسّنها، وجعل لها جمعيات، ونحن تخلّينا عنها في كثير من المواضع.

إنني أذكر هذه النقلة النوعية بثناء كبير؛ لأنني دعيت منذ سنوات قريبة لتقويم

التعليم الإسلامي الديني في جامعة السلطان قابوس، ووجدت الطلبة والمعلمين وغيرهم من الناس يتألمون من فكرة مطروحة لحذف امتحان التربية الإسلاميَّة من الثانوية العامَّة، ووصل الأمر إلى صاحب الجلالة الذي وجّه بإبقاء مادة التربية الإسلاميَّة في المنظومة التربوية، التي سنقف عند بعض جوانبها مع إمامنا الخليلي- رحمة الله عليه.

لقد قلت إنَّ أمرنا ضارب في المعاصرة، لذا عندما باشرت بعض المحاضرات في معهد القضاء الشرعي أبيت في البداية أن يجلس الطلبة على الكراسي؛ لأنني كنت مشتاقا إلى حَلْقَة علم كحَلَقَات القرن الأول. ومن عجائب ما لاحظت- وهذا أمر قد لا يلاحظه العُماني الذي يعيشه صباح مساء، وهو أمر قد يكون تقلّص الآن كثيرا لكنَّه كان شائعا كثيرا قبل ثلاثين سنة- أنني دعيت إلى ضيافة واحد من قضاة البلاد وهو الشيخ سعود بن سليمان الكندي- رحمة الله عليه- وجدتني، وأنا بلحية سوداء ما فيها شعرة بيضاء- مع خمسين أو أكثر من كبار القوم أصحاب اللحى البيضاء، منهم من أكون في سنّ ولده، ومنهم من أكون في سن حفيده، أحسست وكأنّ الزمن رجع بي، لا أقول إلى عهد الصحابة، ولكن إلى عهد قريب أو شبيه بعهد الصحابة، ولم لا؟! كان المجلس يضمّ أناسًا في غاية الوقار، وكانوا يتحاورون فيما بينهم في منظومات شعرية تضمّ جميع فنون الثقافة الإسلاميَّة. وقال لي رفقائي: ماذا ستعمل أنت أمام هؤلاء القوم؟! فقلت لهم: إنَّ الحضارة الغربية التي تعلمنا وفق مبادئها علّمتنا الكثير الذي سيمكننا من إثبات وجودنا أمام هؤلاء العلماء الوقورين، فسترون ما سأفعل! فقدّمت مداخلة قصيرة لخّصت فيها ما قيل في ساعتين في ذلك المجلس.

أبنائي الأفاضل: الإنسان يعتز بأصالته وبحاضره، وما لم نجمع بين الأمرين: الأصالة والمعاصرة لن نتقدم؛ فكما قال أبو القاسم الشابّي وهو يحسن العربيَّة ولا يحسن الفرنسية، قال: "أطير في عالم الأدب بجناح واحد وجناح ثان كسير"؛ فلا معاصرة بدون أصالة، ولا أصالة بدون معاصرة.

الملاحظة الثانية: إنني سأصف الإمام الخليلي - رحمة الله عليه- في حديثي هذا بموضوعية بقدر الإمكان. وسامحوني إن حملت على الإمام بعض الشيء؛ لأنَّ الإمام مع تقديرنا وحبِّنا له بَشَرٌ يصيب ويخطئ، وفي كثير من الأجوبة والحوارات

قد قيل له: "لا". وهذا أمر طبيعي لدى الإمام، ولدى عمر بن الخطَّاب، ولدى عمر بن عبد العزيز؛ فقد نوقش عمر وهو على المنبر، فقال: "أصابت امرأة وأخطأ عمر". فإضفاء جلباب القداسة الكاملة على الشخصيَّة المدروسة يفسد الدراسة العلمية والموضوعية؛ أنت تحبّه وتريد أن تمجّده، نعم، ولكن لا تنس أنَّه إنسان. فإمامنا- رحمة الله عليه- إنسان، ناضل وعاش ردحا من الزمن - نحوا من ثلث قرن - وهو يحمل أعباء الأمَّة، وهذا الحمل ليس بالأمر الهين.

سأصف المنظومة التربوية لدى إمامنا الجليل- رحمة الله عليه -بأربع صفات:

أولا: منظومة تربوية موغلة في الأصالة.

ثانيا: منظومة تربوية موغلة في دراسة العلوم الإسلاميَّة.

ثالثا: منظومة تربوية موغلة في الروحانيات.

رابعا: منظومة تربوية موغلة في الأخلاقيات.

أربع صفات: أصالة عميقة، وروحانيات بدرجة عالية، وعلوم إسلاميَّة بجميع فنونها، وأخلاق عالية، سعى إليها إمامنا- رحمة الله عليه- في القرن الرابع عشر الهجري، وهو ليس منَّا ببعيد، أي القرن العشرين الميلادي، الذي شهد غليانا في ميدان الإصلاح في العالم الإسلامي جميعا. وسأقوم بتحليل هذه القواعد وهذه الصفات تحليلا موضوعيًّا مختصرا، لأنني أدرك أنَّكم جميعا تعرفونها غاية المعرفة.

أمَّا من حيث الأصالة، فجذور هذه المنظومة التربوية هي القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ، واجتهادات علمائنا الأفاضل عبر الزمان. فالمنبع الأساسي القرآن الكريم، والسنَّة الصحيحة المستمدة من مسند الربيع بن حبيب، وكانت حلقاتها لا تتوقف طوال النهار في مدرسة الإمام، في القلعة وفي جميع فروعها الأخرى. فهي حينئذ، مدرسة تجذّرت منظومتها التربوية في الأصالة، بل إنَّها أصالة عميقة وكأنك في حلقات الرسول ﷺ في المسجد النبوي الشريف.

وهذا التوغّل في الأصالة، كما ذكرت في مقدمة كلمتي مع الخمسين عالما الذين جلست في حلقتهم قبل خمسة وثلاثين عاما، يجعلها أقرب إلى الحَلَقَات التي كانت

تدار في القرون السابقة منها إلى أنظمة التعليم والتربية في القرن الحالي، الرابع عشر أو ما قبيله. فهي أقرب إلى حلقات الإمام جابر بن زيد، والإمام أبي عبيدة، وحلقات الربيع، ومحمّد بن محبوب، وابن بركة، وهو شيخ المغاربة، وعمروس.

وإذا أردت أن تعرف مدرسة الإمام الخليلي مجسَّدة في الواقع فاذهب إلى مدرسة الشيخ حمود الصوافي، فهي نسخة طبق الأصل، ولا تحول عنها في ذلك قيد أنملة، بل إنها مدرسة ممتدة من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر تجد فيها أصالة وروحانيات وعلومًا إسلاميَّة.

فهذه الأصالة هي ما سعى وكان يسعى إليه الإمام- رحمة الله عليه- وهو سليل مدرسة السالمي بمشارقها ومعارجها وطلعتها وجوهر نظامها، هذا الجوهر الذي عرفناه ونحن نرضع ألبان أمهاتنا مع شيخنا عمر بن مرزوق، رحمة الله عليه، وكان ضريرا، وكان يقرئنا هذه المنظومة مع مسند الإمام الربيع بن حبيب.

إنَّ هذا تجذُّر في الأصالة بين مغربنا الإباضي ومشرقنا الإباضي، وسامحوني إذا قلت: "الإباضي" فليس معنى ذلك أنني أتعصب وإنَّما أنتمي، وأحترم بقية المدارس؛ لأنَّ هذه الأصالة أيضا موغلة في السادة المالكية، والشافعيَّة وما إلى ذلك، وكلنا نتعانق في هذه الأصالة.

إن الأصالة ركن ركين من هذه المدرسة الإباضيَّة العظيمة التي رضعت لبان كتب جمة من (تلقين الصبيان) إلى أصول الفقه وإلى الشروح الموسّعة في هذه المدرسة السالمية العظيمة التي جدّدت مع المدرسة الطفيشيَّة العطاء الإباضي، والشيخ اطفيَّش كان واعيا في ذلك؛ فعندما أنهى تفسيره قال: الآن كفيتكم المؤونة، وهذا تفسيركم مع تفسير هود بن محكَّم الهواري.

وأمَّا من حيث الروحانيات، فقد حدَّثنا جيل الشباب من المحاضرين في جلسات يوم أمس، وأجسامنا تتحرك قشعريرة، أنَّ طلبة العلم عندما يذهبون إلى الإمام بعد صلاة العشاء يجدونه منفردا مع المولى تبارك وتعالى، فيقفون وراءه للصلاة. كم أتمنى أن تعمل الجامعات هكذا، فما أحوجنا إلى شيوخ نتعلم منهم العلم في النهار، ثمَّ نجدهم بعد صلاة العشاء يصلّون فنصلي معهم جماعة لنُكَمِّل ما تعلمناه في النهار بروحانيات في الليل. ومدارس العالم الإسلامي كلها كانت

تعرف هذا، ففي مدارسنا الإسلاميَّة يتكامل الجانب الروحاني والإيماني، وجانب العلاقة بالله، تبارك وتعالى، مع طلب العلم لوجه الله، ومن أجل العلم لذاته، ومن أجل نفي الجهل. فروح الإخلاص والتفاني والعبادة وروح طلب العلم يتكاملان.

فقوام مدرسة الإمام الخليلي أصالة مع روحانيات، ومع تفنُّن في العلوم الإسلاميَّة جميعا. وإذ أقول هذا، فإنني أتألّم عندما أستمع إلى بعض المحاضرين الذين يخطئون في النحو، وهم من أهل عُمان معقل اللغة العربيَّة، وطن الخليل بن أحمد الفراهيدي، ووطن سماحة المفتي، وهو صاحب درجة عالية في العربيَّة بل وفي كل العلوم، وبينهم آخرون من الذين تعلّموا على يديه. فالأخطاء النحوية ليست مقبولة لاسيما من قبل المحاضرين، ولاسيما أنَّ أصدقاءنا هنالك في بلاد المغرب يقولون: نحن ننتظر أن نتعلَّم العربيَّة من عُمان. ولا شك أن المدارس مهتمَّة بتعليم اللغة إلاَّ أن المزيد من الجهد يتعيَّن أن يُصرف إلى هذا الجانب.

أختم بالصفة الأساس، وهي الأخلاق. والرسول ﷺ يقول: "إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، "أدّبني ربي فأحسن تأديبي"، ويقول عنه، سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم: ٤). إنَّ الأخلاق هي ما تحتاج إليه مدارسنا اليوم.

وفي إطار حديثي عن الأصالة والمعاصرة، فإنني أودُّ أن أَذكُر أنَّ علاقة الشيخ سليمان الباروني بالإمام، هي علاقة إمام متأصِّل إقليمي مع فيلسوف في السياسة والاقتصاد وأمور الحياة المعاصرة الأخرى؛ فلا يمكن أن يجتمعا على كلِّ شيء، ولا يمكن للباروني، وهو خارج المنظومة، أن يفرض شيئا. نعم، لقد فرض الشيخ الباروني نظاما لجمهورية عندما أسَّس نظاما في ليبيا، لكن هنا في عُمان هو ضيف؛ فكان يتعيّن عليه أن يراعي الظروف، ويلمِّح إلى ما يجب فعله، ويحاول أن يُدخل التحديث المقبول، ولكن ما قُبِل من أفكاره وآرائه كان قليلا. ويا حبّذا لو أن الإمام الخليلي أخذ بشيء من المعاصرة في نظام التعليم، وبنى مدرسة حديثة بجانب مدرسته البسيطة التي تحدّثنا عنها. وأنا أحب تلك المدرسة من أعماق قلبي، ولكن لا أرى أنَّها تستطيع أن تواكب تطورات العالم في القرن الرابع عشر بل القرن الخامس عشر. ومدارسنا الآن فيها معاصرة وتحديث، وهي متميزة في ذلك. وبما أننا درسنا مدرسة الإمام الخليلي وما فيها من أصالة، فلنأخذ

وبكلِّ جرأة، ونحن في موطن عزَّة، تلك الأصالة، ونبرزها مع ما لدينا من معاصرة وتحديث.

وعندما نجمع في نظاما التعليمي بين الأصالة والمعاصرة، سنرى عبر الزمن كيف أنَّ عُمان، وهي الآن تحسد على ما هي فيه من أمن ورخاء ومن قدرة على الصمود وهي بين جبلين عظيمين من البلاء المبين، تستطيع أن تصمد هادئة مطمئنة بفضل هذه الأصالة المتينة والمعاصرة الواعية. إننا بحاجة إلى المزيد من الاهتمام وبصورة عمليَّة بهذه الأصالة الراسخة في مخيال العُمانيِّين جميعا شبابهم وكهولهم، ونفض الغبار عنها وفهمها فهما جيدا حتَّى لا نصاب بما أصيب به غيرنا.

وهنا لا بأس أن أتحدث عن تجربتنا في تونس، حيث كان التعليم موغلا في الحداثة والمعاصرة. ففي أول درس في الفلسفة يبدأ أستاذ الفلسفة بطرح أكبر قضيَّة كفرية في الدنيا فيقول متسائلا: آللّه حيٌّ أم ميّت؟ وبالرغم من ذلك، نشأ جيل أحبَّ الأصالة وتحرَّك لإحيائها. فأعيد ما قلته سابقا: الإنسان في هذه الحضارة يجب أن يطير بجناحيه: جناح الأصالة، وجناح المعاصرة المعتدل، الذي نأخذه من الغربيين بعد غربلة ونخل، ونقيسه بقرآننا، لا كما يفعل الآخرون يقيسون القرآن بالمعاصرة والحداثة. لا، بل نقيس المعاصرة والحداثة بقرآننا وبسنة الرسول ﷺ؛ فما يقبله القرآن وما يتماشى مع سنة الرسول ﷺ يدفعنا ويدفع بنا إلى الأمام.

ونتيجة لذلك البعد عن الأصالة، عَرَفَت الجماعات المتشدِّدة موطن الضُّعف، وتحرّكت لنشر الفتن، وأثارت زوبعة حول نقاط الخلاف العقدي. وكنَّا في تونس نتحاشى مدَّة خمس وعشرين سنة الخوض في هذه القضايا، ثمَّ تمكَّنت تلك الجماعات المتطرِّفة من نشرها بيننا في أسبوع أو شهر، وصار كلُّ حديث الشباب مناظرات في العقيدة. قلنا لهم: يا أهلنا، ويا أبناءنا، نحن في هذا العصر بحاجة إلى أمر آخر، وهذه أمور قد دفنَّاها نحن المالكية والإباضيَّة في تونس من زمان بعيد، فلا تثيروا النعرة المضرَّة! ونسأل اللّه تعالى السلامة.

وعُمان استطاعت قبلنا أن تجتاز هذه المعركة مع الفتن، والحمد للّه، بفضل سلطانها وبفضل مفتيها، وبفضل علمائها والعقلاء فيها من أهل السياسة وأهل

العلم. ولما غُلِبتْ هذه الحركة في عُمان حوَّلت أنظارها إلينا، ونزلت بقوَّتها في جبل نفوسة، وجاءت عندنا في تونس، وانتقلت إلى وادي مزاب، ورغم صلابة وادي مزاب فقد استطاعت أن تزلزله. فمن يقف وراء هذه الفتن أناس مأجورون، لا أقول عندهم بيداغوجيا، وإنَّما عندهم أموال وحيل لإغراء الناس بالأموال لأجل المناصب وحظوظ الدنيا.

المنظومة التربوية لإمامنا الجليل الخليلي- رحمة الله عليه رحمة واسعة- رسَّخت قواعد السياسة الشَّرعيَّة الإسلاميَّة في قرن تلاعبت فيه الرياح بجميع الكراسي، ونادى الناس بما نادوا به من قوميَّة عربيَّة، وإبعادٍ عن الإسلام، وعندما أرادوا أن يتصالحوا مع الإسلام ووجدوا أن الإسلام لا يُواكبهم فحاربوه. لكن عُمان خرجت من كلِّ ذلك سليمة بفضل هذه الإمامة الراسخة، وبفضل تعاونٍ بين الإمامة والسلطنة على الساحل.

ونحن، والحمد لله، نشهد شهادة خالصة تنفعنا بين يدي الله تعالى. ونحمد الله تعالى أن وحَّد عُمان. وبفضل انتشار الوسائل الحديثة، وبفضل السياسة الرشيدة والمنظومة الأمنية المنضبطة، يستطيع الشخص اليوم السفر من أقصى ظفار إلى أقصى مسندم، وإذا إصابته ذرَّة سوء على قارعة الطريق يجد الشرطة بين يديه، وتتعجب هل جاؤوا من السماء أم انبثقوا من الأرض؟! وهذه المنظومة الأمنيَّة والمنظومة السياسيَّة والمنظومة التربويَّة والمنظومة الاقتصاديَّة، تحتاج الآن إلى زيادة أصالة، وإلى زيادة أخلاقيَّات، وإلى زيادة روحانيَّات، وإلى زيادة في العلوم الإسلاميَّة مع زيادة في جميع العلوم الحديثة: الطبية والتكنولوجية، فيتخرّج الطبيب ولا يكتفي بدراسة الطب، وإنَّما يكون مطَّلعا على الأصول والفقه وما إلى ذلك.

وأختم بالدعوة إلى تعلُّم العلوم الشَّرعيَّة إلى جانب العلوم الحديثة، فيا معشر الأطباء، ويا معشر المهندسين، ويا معشر أصحاب جميع الاختصاصات، لقد سخَّرت لكم وزارة الأوقاف تدريسا شرعيا عن بُعد فاستفيدوا منه، وأعلم أنَّ المنتسبين إليه يتجاوزون ثلاثة آلاف، وسيصلون قريبا خمسة آلاف، ووصلتنا هذه الخدمة إلى تونس، ومنحتنا الكلِّيَّة كراسي متعدِّدة. ونحمد الله تعالى على هذا الوثاق، وعلى هذا الوفاق، ورحم الله الإمام الخليلي رحمة واسعة.